

المذهب الذري الإسلامي من الميتافيزياء الكالميكروفيزياء (دراسة تحليلية مقارنة)

بقلم الدكتور : عبد الحميد خطاب

المحاور

- 1 - تمهيد في معنى الذرة وأهمية المذهب
- 2 - المذهب الذري قديما
- 3 - المذهب الذري في الفكر الاسلامي
- 4 - الذرية على ضوء معطيات العلم الحديث

تمهيد : (في أهمية المذهب ومعنى الذرة) :

من المعلوم أن المذهب الذري (Atomisme) ، الذي هو في الأساسي مذهب في بنية المادة ، هو من أشهر المذاهب المعروفة في تاريخ الفلسفة وأقدمها انتشارا ، وكان له في تاريخ الفكر الانساني العام دوي هائل ورواج غير قليل . ويمكن القول انه قد مر تاريخيا . بمراحل أساسية هي : ذرية الماديين القدامى ، والذرية الميكانيكية في القرن السابع عشر والثامن عشر، والذرية الفيزيائية المعاصرة. وإذا كان المذهب الذري عموما قد تحرك قديما في دائرة الميتافيزياء والفكر الديني ،. فلا شك أن أصداءه ونتائجه لا تزال تتردد في سماء فكرنا الفلسفي الحديث ، وتقتحم أجواء عصرنا العلمي المعاصر .

وإذا كان الأمر على هذا النحو فلا شك أن المسلمين - كعادتهم جريا وراء الانشغالات الفلسفية الكبرى - كان لهم وقفات جدية مع هذا المذهب ، تعبر عن شخصيتهم الفكرية ، وتنبئ عن اصالتهم الفلسفية .

وبحثنا الصغير هذا إذ يطمح الى تصوير معالم هذا المذهب الهام عند المسلمين ، فانه لا محيد له - والحال هذه - من أن يعرج على الفكر اليوناني الذي تأثر به الفكر الاسلامي في كثير من نواحيه ، والذي سبق له أن عالج المشكلات الفلسفية الكبرى على ضوءه.

وإذا كان المذهب الذري من "الذرة"، فإن الذرة ، والذر ، والذرة -
في لغة العرب - هي النملة الصغيرة، وبها يضرب المثل في الصغر والخفة . وقد
عمم العرب هذا المعنى حتى أطلقوه على الدقيقة من الغبار الذي يرى في ضوء
الشمس داخل الكوى الى البيوت ، ومن ثم على كل الدقائق والجسيمات
المتناثرة من موادها في الهواء . وبذلك غدا معنى "الذرة" - عندهم - يفيد معنى
التناهي في الصغر الذي تعبر عنه جزيئات المواد ودقائقها .

يقول أبو القاسم الزمخشري (المتوفي 583 هـ) في كتابه "اساس البلاغة "
"...ذر الملح على اللحم ، والفلفل على الثريد ، والدواء في العين ، وهو الذرور
... وهذه ذرارة الطيب وغيره ، وهي ما تنثر منه إذا ذررت ، ومنه قيل لصغار
النمل ، وللمنبت في الهواء من الهباء : الذر ، كأنها طاقات الشيء المذرور ،
وكذلك ذرات الذهب (1) ."

ومن المعلوم أن لفظ "مثقال ذرة" ورد في كثير من الآليات القرآنية
للتدليل على معنى الخفاء والضآلة والتناهي في القلة والصغر والقيمة والاعتبار ،
كقوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره"
(الزلزلة : 7-8) أي إن الله عادل عظيم ، فمن يعمل من العباد من الخير أدنى
عمل واصغره فإنه واجد جزاءه لدية ، ومن يعمل من الشر ، ولو عملا قليلا
وتافها ، فإنه واجد ايضا جزاءه ، لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر.

وقد لجأت لغة القرآن - بدورها - الى مفهوم "الذرة" هذا لتبين من خلاله سعة علم الله تعالى وشموليته ، مع إحاطته ونفاذ فعاليته في الكون ، وذلك في مثل قوله - تمثيلا ، لا حصرا : "وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ، ولا أكبر إلا في كتاب مبين " (يونس : 61) ومعنى الآية واضح ، وهو أن الله تعالى لا يبعد عن علمه ، ولا يخفى على ذهنه أقل شىء يبلغ وزنه ثقل دقيقة من دقائق الغبار ، أو يماثل حجمه حجم جزيء من جزيئات الضوء أو الهواء ، سواء في الوجود السلفى أو الوجود العلوي.

وفي التعبير "يعزب" الدال على الخفاء والبعد بيان من القرآن الكريم على ان ما من شأنه أن يغيب ويخفى ويبعد عنا من أعمالنا وخواطرنا لا يغيب عن علمه تعالى ولا يخفى ، بل ولا شىء أصغر من الذرة مما لا يبصر الانسان ولا يركه من دقائق الكون وخفاياه ، ولا أكبر من ذلك ، وإن عظم مقداره ، كعرشه تعالى ، إلا وهو معلوم له ، ومحصى عنده في كتاب عظيم الشأن ، هو الكتاب الذي كتبت فيه مقادير الموجودات كلها ، من أدقها وألطفها صغرا وخفاء الى أعظمها وأكبرها كتلة ومقدارا .

وقد انتشر هذا المعنى ل "الذرة" بما يفيد معنى الضالة والتناهي في الصغر في الفكر الاسلامي ، وعبر عنه فلسفيا بمفهوم "الجزء الذي لا يتجزأ" .

وبهذه المناسبة يذكر عمر بن بحر الجاحظ (المتوفى 255 هـ) في كتابه "البيان والتبيين" أنه حينما قال شاعر الخمريات العربي أبو نواس بيته الشعري التالي :

"تركت مني قليلا من القليل أفلا يكاد لا يتجزأ أقل في اللفظ من لا"
علق شيخ المعتزلة- في وقته- أبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظم (المتوفى 221 هـ) على صاحب البيت بقوله :

"أنت اشعر الناس في هذا المعنى ، والجزء الذي لا يتجزأ منذ دهرنا الأطول نخوض فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت فيه في بيت (2)".
وهذا البيت والتعليق عليه يشير الى ان انشغال المسلمين بمفهوم الجزء الذي لا يتجزأ لم يكن انشغالا وقتيا وعارضا تقتضيه مجرد دواعي الانفتاح الثقافي وحسب ، وإنما كان انشغالا جوهريا ، مثل لحظة وعي في الفكر الاسلامي ، فلم ينحصر في الجانب الديني وحسب وإنما تعداه الى الجانب الفلسفي - الالهي والطبيعي - وترددت أصداؤه حتى في الجانب الفني ، كما في هذا البيت الشعري.

وهذا يعني ان مذهب الذرة هذا قد عرفه المسلمون كما قد عرفه قبلهم فكر اليونان والهنود ، وناقش المسلمون من خلاله مسائل متنوعة وكثيرة ،

وصدرت بإزائه أيضا ردود ومناقشات حفظتها لنا كتب تاريخ المذاهب والمقالات.

ومهما قيل في مسألة التأثير والتأثير ، وانتقال هذا المذهب بحذافيره من العالم اليوناني او العالم الهندي الى العالم الاسلامي ، فان متكلمي الاسلام قد استطاعوا - من دون شك - استغلال هذا المذهب في البرهنة على كثير من المشكلات الكلامية ، كالبرهنة على حدوث العالم الذي يؤكد وجود خالق وصانع له ، وكذلك على علم الله وقدرته الشاملة لكل شيء ، وكذلك على مسألة حشر الابدان واعادة الجسم الانساني يوم البعث ، وما الى ذلك من المسائل الفكرية ذات الطابع الديني.

ولعل في هذا يكمن الفرق الجوهرى والاساسى بين فلاسفة اليونان الطبيعيين الدهريين ومتكلمي الاسلام ، الذين برعوا في استخدام هذا المذهب الذري بما يتماشى مع عقيدة أهل الاسلام .

2 - المذهب الذري قديما (عند ديموقريطس على وجه الخصوص) :

اذا كان معلوما ان مذهب الذرة هذا قديم قد التفكير الفلسفي ، سواء قدم عند اليونان او عند الهنود ، فانه معلوم ايضا ان اول من نادى بهذا المذهب من اليونان انما هو - كما يذكر ارسطو - "لوقيبوس" الذي رأى أن تكون كل